الباب السادس

نقد محمد على

obeikandl.com

obeikandl.com

يمكن تقسيم رؤى المفكرين العرب لنهضة محمد على إلى ثلاثة اتجاهات إتجاه مؤيد لنهضة محمد علي ومبرر لما اكتنفها من سلبيات الثاني : إتجاه رافض لمنهج محمد على وإتجاه يقف موقفاً وسطاً بين الاتجاهين السابقين .

الإتجاه المؤيد لنهضة محمد علي :يرى أنصار هذا الأتجاه أن محمد علي صاحب مشروع نهضة ومنهج فكرى ، كانت نتيجته إحداث نهضة علمية واقتصادية واجتماعية وعسكرية في مصر ، امتدت إلى باقي الدول العربية وكان لها تأثيرها على نمو حركات إصلاح في السلطنة العثمانية ذاتها ، ويمثل هذا الاتجاه كل من : جمال الدين الأفغاني ، ومصطفي كامل ، وجورجي زيدان ، وشكيب أرسلان، وعباس العقاد ، وأحمد فؤاد الأهواني بداية نجد جمال الدين الأفغاني يثني على منهج محمد على ونهضته ، بل إنه يصفه أنه نابغه من نوابغ الدهر ، ويرى أن مصر قد دخلت معه عصراً جديداً تفوقت فيه على كل جاراتها من الأمم في عصور المدنية ، ويعدد مآثر هذا التفوق ، فيراها في الحكومة النظامية والتفوق الاقتصادي المتمثل في الزراعة وتطور وسائلها وانتشار معاهد العلم والمعارف الصحيحة والتقدم في إنشاء الطرق والمواصلات وما إليها من مظاهر تدل على التقدم المادي والاقتصادي ، ناهيك عن انتشار الأفكار الوطنية بين أهالي مصر .

أما مصطفى كامل فإنه يعد من المؤيدين لنهضة محمد علي في دقائقها وتفصيلاتها ، فلم يسجل عليه أي نوع من الانتقادات في إصلاحاته المختلفة على المستوى السياسي والاجتماعي والاقتصادي والعسكري ، فيرى أن محمد على قد أحاط مصر بسياج من القوة والرهبة وسعى إلى إنشاء حكومة منتظمة فيها تدير أمرها على أصول راسخة وقواعد ثابتة ، وجمع شمل الأمة بعد أن كانت موزعه مشتتة على المماليك يتصرفون في أرواح المصريين على هواهم ، صارت وطناً واحداً لأمة واحدة يجمعها لواء واحد وتحت سيادة حاكم واحد اختارته الأمة بمحض إرادتها ويشير مصطفى كامل إلى سياسة محمد علي في حكومته ، فيراها قائمة على ثلاثة مبادئ قويمة لا تدوم دولة بغيرها ، هي أولا : حماية الوطن من أى اعتداء الأجنبي وسلطته، ثانياً : ترقيه الجيش المصري إلى أسمي الوظائف وترسيخه لاستلام مقاليد الأمور حتى لا تحتاج البلاد لأجنبي يزاحم أهلها وتدريب المصريين على العمل والصناعة حتى تحفظ الثروة الأهلية في البلاد ، ثالثاً : الأمتناع عن الاستدانة للتنمية الاقتصادية .

ويرى مصطفى كامل أن محمد علي أيقظ القوي الحيوية في الأمة المصرية عن طريق التركيز على ضرورة نشر الوعي بأهمية العلوم والمعارف بوصفه من المواد الحيوية لإحياء الأمم وإعلاء قدرها ، فقد ألقى محمد علي إلى الأمة المصرية السلاح الذي تحارب به الجهل

والرذيلة ومفتاح التقدم والرقى وآلة المجد والمدنية ، أي العلم الذي أحسن استخدامه وتوظيفه فكانت له الغلبة ، التي يجب أن تسعي إليها الأمة المصرية وإلا قضت على الحاضر والمستقبل

ويرى مصطفى كامل أن محمد علي غيَّر أحوال مصر وألبسها ثوب العزة والمجد عن طريق التوفيق بين المدنية العصرية ومبادئ الدين الاسلامي ، لأنه رأى أن الاسلام يحتوى على كافة المواد الحيوية لأرقى مدنية يطلبها الأنسان ، وأنه الدين الذي يؤهل أهله وذويه إلى أسعد حالات الدنيا وأتم نعيمها ، ويري أن الأمة المصرية إذا اقتدت به واعتمدت على الاسلام وقواعده وأوامره وأخذت من المدنية الغربية فوائدها ومنافعها ، فتكون قد اعتبرت بعبر التاريخ ، وبلغت أقصى مرامي المجد والتقدم .

أما جورجي زيدان ، فقد جاء حديثه عن نهضة محمد علي عبارة عن مدح وإطراء وتقدير لمآثره المختلفة فى مختلف المجالات ، الادارية والزراعية والعسكرية والتجارية والصناعية والصحية والعلمية ، ويختم حديثه المطول عن هذه الانجازات بقوله : إن محمد على كان حاكماً يراعي حق الرعية وإن آثاره العلمية والعملية واضحة للعيان ، لذلك لم يسجل زيدان أدنى نوع من أنواع الانتقاد لكل هذه المآثر والانجازات .

أما شكيب أرسلان فيرى أن محمد علي هو أول من انتقل بالشرق من جموده على أساليب العمران القديمة ، وجعل نصب عينيه الغرب في أساليبه الجديدة حتى يتمكن الشرق من مقاتلة الغرب بسلاحه ويتفوق عليه فيه ، لذلك يرى أرسلان أن محمد على هو مؤسس النهضة الشرقية الحديثة ليس بوادي النيل فقط، بل في البلاد المجاورة أيضاً .

أما عباس العقاد فيعتبر محمد علي من العباقرة في صناعة الحكم وسياسة الشعوب ، فقد أفلح في إنشاء دولة جديدة وأخرجها من الفوضى إلى النظام ، فقد كان منهجه وتفكيره النهضوي قائماً على البداهة العقلية والبصيرة النافذة والاستنارة ، فلم يترك أي مجال من مجالات النهضة القومية للصدفة ، من إنشاء القوة العسكرية والبحرية ونشر التعليم وإرسال البعثات العلمية وترجمة الكتب والاهتمام بالزراعة والصناعة ، حتى إدراكه لقيمة العلاقة الجيدة بينه وبين الرعية ، لذلك اختار لمشروعه هيئة نيابية تناسب الوقت من العارفين بشئون الادارة وأحوال الأقاليم ، ولم ينس تمثيل الصحافة في الهيئة النيابية ، فكان ممثل الوقائع المصرية من أعضائها .

ويبرر عباس العقاد استبداد محمد علي السياسي ، بأنه لم يكن أمامه الا أن يظل الحكم على حالة الفوضى بين عشرات الأمراء أو أن يوجد الرجل الذي يقضي على تلك الفوضى ويجتهد في تنظيم الأحوال على

دعائم الاستقرار والاصلاح ، وقد كان محمد علي هو الحاكم العبقري الذي استطاع تأسيس دولة قوية وتقرير النظم وتكوين نهضة سليمة مطردة على سنن التقدم والحرية .

أما أحمد فؤاد الأهواني فيرى أن مظاهر عبقرية محمد على في أنه نقل مصر من الفوضى إلى النظام وبث فيها معالم الحضارة والعمران بما لديه من مقدرة على الملاءمة بين العقل والارادة والدراسة الدقيقة لمشكلات الحاضر واستشراف المستقبل ، وقد كان ينقل عن الأوربيين ويأخذ علومهم وفنونهم ويرسل البعثات العلمية إلى الخارج ، لأنه كان يؤمن أن العلم لا وطن له وأنه أساس كل تقدم ورقي خصوصاً العلوم الرياضية ، فقد كان يرى أن الهندسة هي سر العمران .

هكذا نجد أن رؤى أصحاب هذا الاتجاه انحصرت في تأييد وتبرير نهضة محمد على وتعدد المآثر والانجازات ، وتركز على منهجه في التعامل مع الحضارة الغربية ، فلم ير محمد علي ثمة تعارضاً بين الدين الاسلامي والعلوم الغربية ، لذلك أقبل عليها بكل ما أوتى من قوة في سبيل تحديث مصر ونهضتها علمياً واقتصادياً وعسكرياً ، وهذا له ما يبرره خاصة مع المتغيرات الدولية التي تفرض على مصر والعالم الاسلامي بأكمله أن يسابق ركب التقدم العسكري والاقتصادي خصوصاً .

ولكن ما يمكن أن يؤخذ على أصحاب هذا الاتجاه هو أنهم لم يروا في تلك الانجازات أسباب عدم استمرارها ولم يبصروا الفائدة التي جنتها منها مصر ، والعبء الذي يقع على عاتق المفكر في بحث أسباب السقوط والاستفادة منها في بناء الحاضر والمستقبل لا في تعداد المآثر والانجازات ، وهذا ما يمكن أن نقف عليه عند أصحاب الاتجاهين الأخرين في رؤيتهم لنهضة محمد علي ومنهجه التحديثي .

الاتجاه الثاني : هو الاتجاه الرافض لمنهج محمد علي وإصلاحاته ويركز على سلبياته أكثر من إيجابياته وكل مفكر له وجهة ينظر منها إليه ، ويمثل هذا الاتجاه كل من : الأمام محمد عبده ، ورشيد رضا ، وإسماعيل مظهر وحسين فوزى ، ومن الباحثين المعاصرين : محمد عمارة ، وعبد المحسن حمادة ، ونصر عارف .

كتب الشيخ محمد عبده في المنار في ٧ يونيه ١٩٠٢ تحت عنوان آثار محمد علي في مصر: لغط الناس هذه الأيام في محمد علي وماله من الأثار في مصر والأفضال على أهلها وأكثرت الجرائد من الخوض في ذلك والله أعلم ماذا بعث المادح على الأطراء وماذا حمَل القادح على الهجاء ، غير أنه لم يبحث باحث في حالة مصر التي وجدها عليها محمد علي وما كانت تصير البلاد إليه لو بقيت وما نشأ من محوها واستبدال

غيرها على يد محمد علي أقول الآن شيئاً في ذلك ينتفع به من عساه أن ينتفع ويندفع به من الوهم ما ربما يندفع.

ما الذي صنعه محمد علي ؟ لم يستطع أن يُحيي ولكن استطاع أن يُميت كان معظم قوة الجيش معه وكان صاحب حيلة بمقتضى الفطرة ، فأخذ يستعين بالجيش وبمن يستميله من الأحزاب علة إعدام كل رأس من خصومه ثم يعود بقوة الجيش وبحزب آخر على من كان معه أولاً وأعانه على الخصم الزائل ، فيمحقه وهكذا حتى إذا سحقت الأحزاب القوية ، وجّه عنايته إلى رؤساء البيوت الرفيعة ، فلم يَدَع فيها رأساً يستقر فيه ضمير أنا واتخذ من المحافظة على الأمن سبيلاً لجمع السلاح من الأهالي وتكرر ذلك منه مراراً حتى فسد بأس الناس وزالت ملكة الشجاعة فيهم وأجهز على ما بقي في البلاد من حياة في أنفس بعض أفرادها فلم يبق في البلاد رأساً يعرف نفسه حتى خلعه من بدنه أو نفاه مع بقية بلده إلى السودان فهلك فيه.

أخذ يرفع الأسافل ويُعليهم في البلاد والقرى كأنه يَحِن لشَبَه فيه ورثه عن أصله الكريم حتى انحط الكرام وساد اللئام ولم يبق في البلاد الا آلات له يستعملها في جباية الأموال وجمع العساكر بأية طريقة ، فمحق بذلك جميع عناصر الحياة الطيبة من رأي وعزيمة واستقلال نفس ، ليُصَيّر البلاد المصرية جميعها إقطاعاً واحداً له ولأولاده بعد إقطاعات كانت

لأمراء عدة ماذا صنع بعد ذلك ؟ اشرأبت نفسه ليكون ملكاً غير تابع للسلطان العثماني ، فجعل عدته أن يستعين بالأجانب من الأوربيين فأوسع لهم في المجاملة وزاد لهم في الأمتياز حتى صار كل صعلوك منهم لا يملك قوت يومه ملكاً من الملوك في بلادنا ، يفعل ما يشاء ولا يُسئل عما يفعل ، وصغرت نفوس الأهالي بين أيدي الأجانب بقوة الحاكم وتمتع الأجنبي بحقوق الوطني التي حُرم منها وانقلب الوطني غريباً في داره غير مطمئن في قراره .

فاجتمع على سكان البلاد المصرية ذُلان ذُل ضربته الحكومة الاستبدادية المطلقة وذُل سامهم الأجنبي إياه ليصل إلى ما يريده منهم غير واقف عند حد أو مردود إلى شريعة.

لا يستحي بعض الأحداث من أن يقول : إن محمد علي جعل من جدران سلطانه بناء من الدين أي دين كان دعامة للسلطان محمد علي؟ دين التحصيل ؟ دين الكرباج ؟ دين من لا دين له إلا ما يهواه ويريده ؟ والا فليقل لنا أحد من الناس أي عمل من أعماله ظهرت فيه رائحة الدين الاسلامي الجليل ؟.

لا أظن أن أحداً يرتاب بعد عرض تاريخ محمد علي على بصيرته أن هذا الرجل كان تاجراً زارعاً وجندياً باسلاً ومستبداً ماهراً لكنه كان لمصر قاهراً ولحياتها الحقيقية مُعدما وكل مانراه الآن فيها مما يسمى حياة فهو

من أثر غيره يقول السيد عمر مكرم نقيب الأشراف عن محمد علي : إن وُجِد من يحاسبه على ما أخذ من الفرض والمظالم لما وسعته الدفاتر.

وبداية يحمل الامام محمد عبده علي محمد علي حملة شعواء ، فينتقد منهجه وأسلوبه في مختلف نواحيه ، أول هذه الانتقادات هي استبداد محمد علي في التعامل مع المخالفين له في الرأي والفكر ، فكان يستعين بالجيش للتخلص من خصومه ، وكان يستعين بمن يستميله من الأحزاب لسحق حزب آخر ثم يستدير على من كان معه فيتخلص منه ، وعلى ذلك حتى فسد بأس الأهالي وزالت ملكة الشجاعة منهم وثاني هذه الانتقادات هو أسلوب محمد علي في التعامل مع الأجانب ، فقد أعلى كعبهم وأغدق عليهم الوظائف ووهب لهم المكانة الاجتماعية حتى ضعفت نفوس الأهالي وتمتع الأجنبي بحقوق المواطن التي حرم منها ، وهكذا اجتمع على المصري ذل حكومة الاستبداد المطلق من ناحية وذل إذلال الأجانب لهم من ناحية أخرى .

وثالث هذه الانتقادات هو أن إصلاحات محمد علي كانت في مجملها موجهة ناحية الجيش والأغراض العسكرية ولم تكن موجهة ناحية الأمة المصرية ، فقد اعتنى بالطب والهندسة لأجل الجيش حتى البعثات العلمية كانت من أجل خدمة أغراضه وبذلك قتل الحرية الفكرية لدى الشعب .

ورابع هذه الانتقادات هو أن محمد علي لم يفكرٍ مطلقاً في إصلاح اللغة سواء أكانت العربية أم التركية ، ولم يجعل للأهالي رأياً في حكوماتهم ولم يضع حكومة قانونية منظمة يقام بها الشرع ويستقر بواسطتها العدل ، ولم يفكر كذلك في بناء التربية على قاعدة من الدين أو الأدب ، حتى الكتب التي ترجمت في شتى فروع المعرفة من تاريخ وفلسفة وأدب لم ينتفع بها الشعب المصري لأن محمد علي لم يعمل على تكوين أرضية عريضة من أبناء الشعب المصري تستفيد من هذه الكتب .

الانتقاد الخامس ينصرف إلى اهتمام محمد علي بتكوين جيش قوي وأسطول بحري لكنه أهمل تعليم المصريين الجندية ، فلم يعلم المصريين حب التجند رغبة في الفتح والغلبة والافتخار ، بل علمهم الهروب منها ، لذلك لم يشعر المصري يوماً أن هذا جيشه وأسطوله وأنه في خدمته وخدمة وطنه ، وقد ظهر ذلك الأثر العظيم أثناء إخماد ثورة عرابي ، فقد دخل الانجليز مصر كأسهل ما يكون ، عكس ما حدث من مقاومة المصريين للفرنسيين أثناء دخولهم مصر .

الانتقاد السادس هو إهمال محمد علي للناحية الدينية في نهضته ، فيرى أن محمد علي لم يهتم يوماً بالدين الا من ناحية استمالة بعض رجاله المنافقين لدعم سلطانه أو للقضاء على الوهابية ذلك العمل الذي

بدأ في ظاهرة خدمة للدين ، في حين أنه عمل سياسي محض لا شأن له بالدين أو بغلو الوهابيين في بعض معتقداتهم .

خلاصة القول فيما يرى محمد عبده أن محمد علي كان تاجراً وزارعاً وصانعاً وجندياً باسلاً ومستبداً ماهراً ،لكنه كان لمصر قاهراً ولحياتها الحقيقية معدماً هذا هو رأى محمد عبده في نهضة محمد على فهو لم ير فيها أي جانب إيجابي ، وبغض النظر عما قيل حول هذا الرأي من أنه كتب بدوافع سياسية نتيجة لخصومته مع الخديو عباس وتسلحه بمؤازرة الأنجليز له ، فقد جاء نقد محمد عبده ردًّا على تقريظ مصطفي كامل لمحمد علي في خطبة ألقاها ومهما يكن من أمر هذه الأراء فإنا نعتقد أن محمد عبده قد أصاب في أكثر ما قاله ، فهو يأخذ على محمد علي إهماله تنمية الوعي القومي المصري بالنهضة والاصلاح ، فقد أنشأ محمد علي نهضة عمرانية لكنها كانت لأجل خدمة غرض واحد هو الغرض العسكري ولم يشعر الانسان المصري بها ، بالاضافة إلى أنه أهمل الجانب الديني الأخلاقي في نهضته فكانت نهضة منقوصة لم تؤت ثمارها المرجوة ، وكل هذا كان وما يزال أمراً واقعياً ملموساً لا يحتاج إلى تأويلات مختلفة خاصة ما أثاره الامام محمد عبده من إعلاء سلطة الأجانب في مصر على حساب كرامة المواطن المصري ، حتى وصل الأمر إلى إنشاء المحاكم المختلطة التي كانت بداية الاحتلال الأجنبي

لمصر ، وهذا ما يدلل على رفض البعثة اليابانية ، التي زارت مصر آنذاك لدراسة نظام المحاكم المختلطة ، تطبيق ذلك النظام في اليابان ، والمقارنة تظهر أيهما كان على صواب أما عن رأي رشيد رضا، فإنه لم يختلف كثيراً عن رأي أستاذه الا في تفصيلاته، فيشير إلى أن محمد على يعد ضمن المصلحين من الناحية الدنيوية المادية والسياسية دون الناحية الدينية والمعنوية ، فقد بنى ركني الثروة والقوة على أساس العلم لكنه أهمل بناء الأخلاق والأداب على أساس الدين وسنن الاجتماع ، لذلك كان إصلاحه منقوصاً عالج ناحية وأهمل الأخرى ، ويرى أن هذا الاصلاح يعد إصلاحاً صورياً لم يزد الأمة الا ضرباً من الفساد وإضعاف روح الاستقلال ، فلم يكن محمد علي هو الطبيب الاجتماعي المبصر بأمراض الأمة الباطنة والظاهرة حتى يتمكن من وصف العلاج الملائم لها ، لذلك كان من أثر عدم تمكن الطبيب أن زادت الأمة مرضاً وضعفاً ، حتى إن العلوم التي أدخلت إليها قسراً كانت مثل الجسم الغريب الذي يدخل في البنية فيفسدها ، لأن هذه العلوم لم تكن على حسب استعداد الأمة وحاجاتها ، بل كانت تقليداً صورياً أو عارضاً وقتياً تمثل ضررها في تلك التقاليد والقوانين الغربية التي قطعت كثيراً من روابط الأمة الملية ومشخصاتها الأدبية والاجتماعية ولم تستبدل ما يحل محلها من مقومات الأمم الأوروبية ، بل صارت عيالاً عليهم في جميع الشئون ، حتى انتهى الأمر إلى فقدان الاستقلال باسم النفوذ أو الحماية أو الاحتلال .

لذلك ينتقد رشيد رضا مصطفي كامل في مبالغته فى وصف محمد على بأنه استطاع التوفيق بين المدنية العصرية والدين الاسلامي ، ويرى أن محمد علي لم يكن عالماً ولا فيلسوفاً إنما كان أمياً لا يعرف من علوم الدين أو الدنيا شيئاً ويري رشيد رضا أن لمحمد علي ثلاثة أعمال كبيرة ، كان كل منها موضع خلاف هل كان نافعاً أم ضاراً بالمسلمين في سياستهم ؟ العمل الأول هو تأسيس حكومة مدنية بمصر كانت مقدمة لاحتلال الأجانب لها ، ورغم الاختلاف الدائر حول قيمة هذا العمل إلا أن رشيد رضا يميل إلى ذم هذا النوع من الحكومات الظالمة وكل ما فعلته حكومة محمد علي هو أنها نظمت الظلم ووحدته ويرى أن مقصد محمد علي لم يكن سليماً وإن كان يحمد في نظر الدنيا لكنه لا يحمد في نظر الدين ، فلم يقصد محمد علي غير الملك وعظمته له ولذريته أما نتيجة عمله فهو دخول الأوروبيين مصر ونشر مدنيتهم وسيطرتهم عليها بالاحتلال أما العمل الثاني فهو الخروج على الدولة العثمانية ، ورغم الاختلاف حول هذا العمل ، فإن رشيد رضا يميل إلى نقده كذلك ويقف إلى جوار الرأي الذي يرجح أن هذا العمل أضر بالاسلام والمسلمين ، وكان من نتيجته إضعاف وقهر لأقوى دولة إسلامية في عصرٍ قويت فيه الدول الأجنبية فضعف بذلك الاسلام ولم تقم لأهله قائمة حتى الآن أما العمل الثالث فهو محاربة الوهابية ويميل رشيد رضا إلى رأى الخواص في هذا الموضوع ، الذي مؤداه أن الوهابية كانت حركة إصلاحية ولم تكن

مبتدعة خارجة عن السنة ، بل إن مذهبهم هو مذهب السلف في العقائد ومذهب الامام أحمد في الفروع ولهم تشديد عظيم على مخالف السنة .

ذلك هو رأى رشيد رضا الذي يعبر عن وجهة نظر نقدية كذلك لإصلاحات محمد علي ، وهو بذلك يتفق مع الأستاذ الامام محمد عبده ويختلف كلاهما مع جمال الدين الأفغاني ، ويجب التنويه إلى أن هذا الخلاف لا يفسر على أنه خلاف حول قيمة العلم وأهميته خاصة العلم الغربي ، لأنهم جميعاً اتفقوا على ضرورة العلم لنهضة العالم العربي والاسلامي ودعوا إلى التعامل الانتقائي مع الحضارة الغربية برمتها مع التركيز على جوهر تقدمها دون مظهره ، وبذلك يكون مرد الخلاف حول منهج محمد على وأسلوبه في التعامل مع الحضارة الغربية لتحديث المجتمع المصري ، فالامام محمد عبده ورشيد رضا رأوا أنه لم يوفق في التعامل معها ولم يتمكن من التوفيق بين الموروث والوافد أو بين الأصالة والمعاصرة ، فكانت نهضته عبارة عن إقحام الوافد رغماً عن الموروث وقسراً له لذلك لم يجد الأرضية السليمة للإنبات والنمو في المجتمع المصري والعربي ، أما جمال الدين الأفغاني فحماسته ورغبته الشديدة في رؤية مصر متقدمة اقتصادياً وعلمياً جعلته يتغاضى عن أخطاء محمد علي في التطبيق أما انتقاد رشيد رضا لمحمد علي في هجومه على الدولة العثمانية وبيان ضعفها أمام الدول الأوروبية ، مهد

الطريق للانقضاض عليها فيما بعد ، فذلك يعود إلى إيمان رشيد رضا في تلك الفترة بفكرة الجامعة الاسلامية المتمثلة في الخلافة العثمانية في ذلك الوقت وكان الحفاظ عليها وإصلاحها من الداخل هو الهدف وليس الهدف هو محاربتها وبيان ضعفها ، وهذه الفكرة سوف تتحول عنده إلى القومية العربية داخل الاطار الاسلامي فيما بعد .

أما إسماعيل مظهر ، فإنه يقف من نهضة محمد علي موقفاً نقدياً ، فيرفض اعتبارها نقطة الارتكاز التي يمكن أن يقال عنها إنها السبب في تغير أساليب الفكر في مصر ، والسبب في ذلك أن محمد علي أهمل تنمية الوعي القومي المصري بالنهضة ، فكان أن سيقت الأمة المصرية سوقاً نحو غايات لم تعرف يوماً أنها مسوقة في سبيلها ولم تشعر بما ينتظرها وراء تلك الغايات من المقاصد التي كانت تجول في رؤوس زعمائها ، ويبدو ذلك واضحاً لا من خلال الغزوات الحربية التي قام بها محمد علي فقط ، بل من خلال إسهاماته في ميدان العلم والمعرفة كذلك ، حتى إن مظهر يرى أن ذلك العهد على كثرة ما أنتج من نوابغ المتعلمين الذين أوفدهم المصلح إلى أوروبا لم يخرج مفكراً واحداً استطاع أن يجمع قوة الفكر الكامن في المجتمع المصري حول غاية معينة .

ومن الجدير بالذكر أن الخلاف بين المفكرين يدور حول مدى إسهام محمد علي في ضعف فكرة القومية العربية وتأخر ظهورها ، وأكثرهم

متفقون على أن نهضة محمد على أسهمت في بناء الوعي القومي المصري على حساب الوعي القومي العربي ، الا أن إسماعيل مظهر ينفي عن نهضته حتى هذا الانتقاد .

أما حسين فوزي النجار فإنه يقف كذلك موقفاً نقدياً من نهضة محمد على وأسلوبه في إطار نقده لمنهج محمد علي في التعامل مع الحضارة الغربية الذي ركز على آثار تلك الحضارة المادية بدلاً من التركيز على فلسفتها في النهضة ، أي على أصولها ومبادئها التي قامت عليها.

ويفصل ذلك فيرى أن نهضة محمد علي لم تر في الحضارة الغربية غير الشق المادي منها ، فحدثت تطورات على مختلف المستويات السياسية والاقتصادية والعلمية والعسكرية ،لكنها كانت إصلاحات ظاهرية ركزت على الشق المادي من حضارة الغرب وتقدمه دون فنونه الرفيعة وفكره وفلسفته في النهضة والمنهج الذي أتبعه حتى وصل إلى ما وصل إليه ، لذلك تاهت من محمد علي وأتباعه المقومات الحقيقية للنهضة لأنها لم تؤمن بحضارة الغرب الفكرية والفنية والعلمية ، لم تؤمن بها ككل متكامل ، ومن هنا حدثت البلبلة فلم يستطع الشعب المصري أن يسير نحو التطور الطبيعي للانتفاع الكامل بتلك الحضارة أو الاستغناء الكامل عنها ، بل إن الأمر لم يقف عند هذا الحد من التأثر بالحضارة الغربية في علومها وتكنولوجيتها وتطبيقاتها المختلفة ، بل

تعداه إلى استعادة مظاهرها البراقة وتطوراتها الدنيوية التي لا تتلاءم مع طبيعة وواقع الشعب دون أن تتطور الأمة المصرية روحياً في مقابل ذلك.

ويدلل على رأيه السابق هذا بعملية استقرائية بسيطة لبواكير الحضارة الغربية وأسس تقدمها وهو عصر النهضة أو الاحِياء وما حدث في مصر من إحياء ، فيرى أن ما حدث في أوروبا جاء على أثر اليقظة الفكرية والشعورية والتخلص من سيطرة الغيبيات والتزمت في العقائد إلى جوار الاهتمام بآثار الحضارة اليونانية والرومانية من أدب وفلسفة وفن وعلم ، وعندما لم تعثر على بعض الأثار الفكرية في أصولها القديمة لجأت إلى علماء العرب وفلاسفتهم الذين استفادوا من الحضارة اليونانية وترجموها ودرسوها واستفادوا من هؤلاء جميعاً في بناء حضارتهم ولكنهم لم يتوقفوا عند ذلك ، بل تحولوا إلى شعوب ومفكرين مستقلين فكراً وعقيدة ، فراحوا يفسرون الظواهر الطبيعية مثلاً ويفحصونها دون التقيد بما جاء في كتبهم المقدسة أو كتب أرسطو ، بل على أساس من الملاحظة والتجربة بجوار الوسائل الأخرى مثل التدوين والمقابلة والقدرة على استخلاص النتائج وبذلك خرج الأوروبيون من عصورهم الأولى ، ولنهضتهم أسس فكرية وروحية وفنية بجوار تقدمهم المادي .

أما ما حدث في مصر في عصر محمد علي ، فهو رغبته في أن تكون مصر جزءاً من أوروبا ، لكن عن طريق استعادة المظاهر المادية فقط ،

فكانت الحضارة الغربية بالنسبة له ولأتباعه زخرفاً مزيفاً ولباساً ظاهرياً دون أن يعي الأساس الفكري والفني والروحي لهذه الحضارة ، وأكبر مثال على ذلك البعثات العلمية التي أوفدها إلى أوروبا لنقل تلك الحضارة إلى مصر ، فيلاحظ عليها أنها لم تتجه ناحية الاحياء ولم تكن بعثات فكرية علمية ، لكنها كانت بعثات تخدم في المقام الأول الناحية الحربية والعسكرية ولم يكن أغلب أعضاء هذه البعثات مصريين ، ولو كانوا كذلك لاستطاعوا أن ينقلوا إلى مصر بعض لقاح الثقافة ولكنهم في أغلبهم عادوا إلى بيئاتهم الأرستقراطية التركية وعاشوا بمعزل عن الشعب ، لذلك لم تؤت هذه البعثات ثمارها الفكرية كما ينبغي أن تكون فيما عدا رفاعة الطهطاوي الذي حقق غرضاً لم يكن هو مرسلاً لأجله .

كذلك يأخذ حسين فوزي النجار على محمد علي أن نهضته لم تراع طبيعة ونفسية الأمة المصرية ، ولم تحاول أن تطور تلك الأمة عقلياً وفكرياً في مقابل تلك التطورات العمرانية المادية لذلك تقدمت مصر مادياً بخطوات سريعة بقدر ما تخلفت عقلياً وشعورياً عن الأحساس بالنهضة والتقدم .

ورأى حسين فوزي النجار هذا يأتي في إطار التوجه ناحية الحضارة الغربية بروح تركز على فلسفة نهضتها لا على آثارها المادية ، وعلى ذلك فالخلاف مع محمد على ليس على التوجه ناحية الغرب ، بل على

أسلوب ومنهج التعامل مع الغرب ، فالنجار يري ضرورة أن يشعر الشعب بأهمية النهضة ويتفاعل معها ، ويجب أن تكون نهضة متضمنة دراسة نقدية انتقائية للتراث المصري والعربي حتى نتمكن من التحرر العقلي والفكري الذي نبني عليه التقدم المادي ، في حين أن محمد علي لم يراع كل ذلك ، وتوجَّه نحو الشق المادي من الحضارة الغربية وأقحمه على المجتمع المصري قسراً ، وهذا ما أدى إلى انهيار تلك النهضة سريعاً وجدير بالذكر أن مشكلة العلاقة بين الأنا والآخر ظلت منذ عصر محمد علي حتى الآن الشغل الشاغل للمفكرين العرب بمختلف توجهاتهم ، حتى إنه يمكن القول أن هذه المشكلة تزداد تجذراً وعمقاً في المجتمعات العربية .

أما لويس عوض فيسجل بعض الانتقادات على نهضة محمد علي ، خاصة الصناعية وأسلوبه في إدارتها ، فيرى أن أسلوب محمد علي الصناعي أدى إلى تأخر انتشار الأفكار الديمقراطية وتبلور مبادئ حقوق الانسان في المجتمع المصري الحديث ، ومرد ذلك إلى أن نشأة الصناعة المصرية في أيام محمد علي في كنف رأسمالية الدولة أو نظام الاحتكار وفي كنف العسكرية المصرية بدلاً من نشأتها في كنف الأستثمار الفردي أولاً ، والشركات المساهمة ثانياً كما حدث في البلاد الأخرى ، وقد أدى هذا إلى أن الطبقات المتوسطة المدنية التي تكونت منها البرجوازية

المصرية اصطبغت بصبغة مَيَّزَتْها عن بقية البرجوازيات الأخرى ، فكان العامود الفقري لها هم الطبقة الفنية والصناعية والعسكرية والتجارية بمختلف مستوياتها بالاضافة إلى الطبقة البيروقراطية التي تتألف من جيش الكتبة والاداريين ، ويرى لويس عوض أن هؤلاء أقرب إلى الموظفين الذين يفضلون الأمان والمعاش المنتظم على الحرية ويستمدون فكرة الكرامة لا من نمو الفردية أو قوة الشخصية أو القدرة على الاقتحام والابتكار ، ولكن من مبدأ الخدمة العامة والقيام بالواجب وذوبان الفرد في الجماعة وتأليه الدولة وطاعة أولى الأمر طاعة عمياء دون تفكير ، وقد انطبق هذا التوصيف نفسه على طبقة البروليتاريا المصرية التي فقدت ملامحها المميزة لها كطبقة لها استقلالها ، لأنها نشأت في كنف السلطات والقطاع العام ، وقد نجم عن ذلك أن الظهير الحقيقي للديمقراطية لم يكن من الطبقات المتوسطة المدنية البرجوازية المصرية ، كما حدث في بلاد العالم المتقدم ، إنما كان ظهيرها الحقيقي هم الطبقة المتوسطة الزراعية وأوساط الملاك ، ولم يصبح لهذه الطبقة المتوسطة الزراعية عقل مستنير قادر على القيادة الاجتماعية إلا بعد أن تبلورت من بين أبناء مصر طبقة من أرباب المهن الحرة ، وتاريخ الديمقراطية في مصر ، شأنه في ذلك شأن معظم البلاد المتقدمة ، هو تاريخ اتساع رقعة الملكية الفردية ويرى لويس عوض أن كل ما استحدثه محمد علي في مصر من أدوات الدولة الحديثة سواء في باب

التنظيم والادارة أو في باب العلوم والتكنولوجيا كان مجرد وسائل لخدمة أهدافه العسكرية ، وذلك أن آخر ما كان يفكر فيه محمد علي هو بناء الانسان على أرض مصر ولذلك أنهارت إنجازاته سريعاً بمجرد انهيار دولته وغاصت مصر مرة أخرى في الجهل والتخلف ، والسبب أن محمد علي لم يكن هو ذلك المستبد المستنير الذي تحتاجه الأمة للنهوض بها ، بل كان مستبداً أكثر منه مستنيراً .

يتفق لويس عوض مع سابقيه إسماعيل مظهر وحسين فوزي النجار في أن محمد علي أهمل تنمية الوعي القومي المصري بالنهضة ، وأن نهضته غلب عليها الطابع الشخصي أكثر من الطابع القومي الحقيقي ، ويركز لويس عوض في ذلك على ضرورة بناء شخصية الانسان المصري وتنميته التي أهملها محمد على في إطار اهتمامه باستبداد الدولة وهذا هو سبب انهيار إصلاحاته سريعاً في نظره .

ومن الباحثين المعاصرين الذين نقدوا محمد علي ، محمد عمارة ، حيث يركز على تبني محمد علي لفكر الدولة المستبدة التي تسيطر على أغلب نواحي النشاط الاجتماعي ، فأحيلت الأمة إلى التقاعد وأصيبت ملكاتها وطاقاتها بالسلبية والذبول واللامبالاة ، وبذلك تعاظم دور الدولة على حساب الأمة والشعب ، وهذا يبرر الاخفاقات التي أصابت مشروع محمد علي إذ أصبح موقف الدولة ضعيفاً أمام التغريب والاستلاب

الحضاري والاحتلال ولا يذهب بعيداً عن تلك التوجهات السابقة كل من عبد المحسن حمادة ، ونصر محمد عارف ، حيث يركزان على الطابع الشخصي في نهضة محمد علي واختفاء الطابع القومي ،وسعيه لتأسيس دولة قوية على حساب المجتمع تسلبه معظم صلاحياته ودوره وقوته ، لذلك فإن تجربة محمد علي كانت تجربة فوقية ركزت على مجموعة من المؤسسات التي لم يتعامل معها إلا أفراد النخبة ، أما باقي المجتمع فلم ير فيها إلا نوعاً من طغيان الدولة على حساب المجتمع .

تلك هو مجمل الأراء التي وقفت من نهضة محمد علي وقفة نقدية في مجملها وركزت على سلبياته أكثر من إيجابياته وهي تقف على النقيض من آراء الاتجاه السابق الذي ركز على إيجابيات محمد علي وغض الطرف عن سلبياته ، ويلاحظ على هذه الأراء أنها جمعت بين أنصار الاتجاه المعتدل من ناحية ، وأنصار الاتجاه العلماني أو التغريبي من ناحية أخرى ، جمعتهم على المقدمة وهي تسجيل الملاحظات والانتقادات على منهج محمد علي في النهضة وإن كانوا قد اختلفوا حول صياغة تلك الانتقادات ، فأنصار الاتجاه التوفيقي نقدوه في إهماله الجانب الديني الأخلاقي في النهضة ، وأنصار الاتجاه العلماني نقدوه في إهماله أسس وقواعد النهضة الغربية بدلاً من التركيز على مظاهر نهضتهم المادية البراقة فقط ولكنهم اتفقوا جميعاً على إهمال محمد علي للإنسان المصري

وتنمية وعيه بالنهضة والتقدم وكل رأي ركز على ناحية مهمة افتقدتها نهضة محمد علي وكانت من الأسباب المرجحة لانهيار هذه النهضة سريعاً وعدم استمرارها فيما بعد ، وهذا ما يجب أن نأخذ منه العبرة في بناء نهضة العالم العربي والاسلامي الحاضرة .

أما الأتجاه الثالث : فهو ما يمكن أن نطلق عليه الاتجاه المحايد وهو الاتجاه الذي يسجل لمحمد علي إنجازاته ويعتد بها ، وهو في الوقت نفسه يسجل عليه أخطاءه وهفواته ويزن لكل جانب ما له من أهمية وقيمة وتأثير في النهضة ، من أمثلة : جورج أنطونيوس ، سلامة موسى ، أحمد حسين ، وعبد المتعال الصعيدي ومن الباحثين المعاصرين : مسعود ضاهر ، عبد العزيز الدوري ، ومحمد عابد الجابري ، وعبد الاله بلقزيز ، وغيرهم .

يذهب جورج أنطونيوس في تحليل نهضة محمد علي مذهباً مختلفاً عن سابقيه ، فيري أنه حاول بعث فكرة القومية العربية مرة أخرى وبذل جهوداً جبارة ، وساعد في ذلك ابنه إبراهيم باشا لتكوين إمبراطورية عربية تنطلق من مصر والسودان وتضم بلاد الشام والجزيرة العربية ، ويثنى انطونيوس على هذه المحاولة ويعدد أسباب إخفاقه في تحقيقها ، فيحصرها في عدة عوامل داخلية وخارجية أكثرها لا يعود إلى نهضة محمد علي .

أما عن العوامل الداخلية ، فتعود من ناحية إلى فقدان التضامن القومي في العالم العربي بفعل الانحطاط الذي أصاب العرب وسوء الادارة التي منوا بها خلال القرون الطويلة مما أورث روح الجماعة عندهم وهناً وأوجد في انسجامهم القديم خللاً ، وعلى ذلك يمكن القول بأن هذه النهضة العربية بقيادة محمد علي قد ولدت في غير أوانها فخلقت قبل أن يخلق الوعي القومي عند العرب .

أما الناحية الأخرى فتكمن في الاختلاف بين طموح محمد علي ورغبات ابنه إبراهيم ، فقد كان لكل منهم تصور خاص عن إمبراطورية المستقبل ، حتى وإن اتفقا في الرغبة الرامية إلى ضرورة تكوين مملكة موحدة تضم المناطق العربية ، فقد كان هدف محمد علي هو الاستيلاء المجرد لذلك عول على نوايا العرب الحسنة وتأييدهم الفعلي له ، ولكنه لم يشعر ناحيتهم باحترام حقيقي ولم يتصور دعائم حكمه الا قائمة على سواعد أتباعه من الأتراك والألبانيين وعلى ذلك فقد كان العرب بالنسبة له مجرد رعايا طائعين ، أما إبراهيم فقد كان هدفه هو إنشاء مملكة يكون من دعائم الاستقرار فيها هو بعث العرب بعثاً قومياً ، لكنهما فشلا في النهاية في إذكاء نار القومية العربية في نفوس أهلها .

أما عن العوامل الخارجية ، فتعود إلى خوف دول أوروبا من نهضة مصر والعالم العربي، فقد أثارت توسعات محمد علي خوف الدول العظمى

لذلك ناهضت منذ البداية تكوين إمبراطورية عربية حديثة ووقفت لها بالمرصاد ولا أتفق مع انطونيوس في تركيزه على دور محمد على في إبراز فكرة القومية العربية ، وأرجح الرأي الذي يذهب إلى أن هدف محمد على لم يكن بعث القومية العربية أو توحيد العرب تحت لواء إمبراطورية واحدة بقدر ما كان هدفه هو بناء مجده الشخصي مدفوعاً في ذلك برغبات السلطان العثماني من ناحية ، وتشجيع الدول الغربية غير المخلصة من ناحية أخرى أما سلامة موسى فيرى أن محمد علي كان يؤمن بالحضارة الغربية ، فأسس المصانع على النمط الأوروبي وأوجد في نفوس الأمة المصرية حب العمل بعد أن كانت طبائع الاستبداد الشرقية قد طبعت فيهم حب الخمول والدعة .

وعلى الجانب الأخر لم يكن محمد علي يثق بالمصريين أو يحسب لكرامتهم حساباً ، لذلك كانت بعثاته إلى أوروبا مؤلفة من غير المصريين من المماليك والمقدونيين ، فكانت نهضته ناقصة لم تستقر فيها عوامل النمو أما أحمد حسين فيرى أن محمد علي أنشأ جيشاً وبنى أسطولاً وفتح المدارس وأرسل البعثات العلمية ، وترجم الكتب في مختلف الفنون وشق الترع وبنى المصانع ، وخاض معارك رفعت اسم مصر عالياً في ذلك الوقت ، وكان مضرب المثل للشباب المصري حين يبحث عن قدوة في القدرة على النهوض ، والأخذ بأسباب الحضارة العلمية والتفوق على

كثير من دول آسيا وأوروبا في التقدم ويبدأ في تحليل المآخذ التي تؤخذ على محمد على وأهمها من الناحية السياسية استبداده المطلق بالحكم وأنه لم يكن يخضع لقانون سوى محض إرادته ، وأن نظرته إلى شعب مصر كانت نظرة عنصرية ضيقة ، ويتفق مع أصحاب هذا الرأي الأمام محمد عبده ولكنه يري أن محمد علي ابن عصره في العالم عامة ، فقبل سنوات قليلة من قيام حكم محمد على كانت فرنسا ، بل أوروبا كلها تحكم بهذه المقاييس السابقة ، وكان نظام الاقطاع يجعل الأرض ومن عليها ملكاً للملك أو الأمير ، لذلك عندما نتحدث عن عصر محمد علي يجب أن نعي أنه لم تكن في مصر ديمقراطية قبله وألغاها أو كانت بها محاكم وعدالة فحولها إلى ظلم ، أو نظام فَحَوَّلَهُ إلى فوضى ، ولم تكن الأرض الزراعية مملوكة للفلاحين وانتزعها منهم ، ولم يكن لمصر جيش من أبناء البلاد فحوله محمد علي إلى جيش للأتراك ، بقى القول أن محمد علي واصل أسس الحكم التي جري عليها العمل في مصر خلال أجيال وقرون عديدة .

أما ما يقال حول النزعة الشخصية والرغبة في تكوين ملك عظيم يتوارث له ولأبنائه من بعده فهذا ما يقره أحمد حسين ، ولكنه يري أنه من التجني القول أن مصر لم تستفد من ذلك ، بل يمكن القول أن فترة حكم محمد علي هي البداية الفعلية لتاريخ مصر الحديث ، حيث خرجت

مصر من عزلتها التي فرضتها عليها قرون من الحكم العثماني لتتفاعل مع التيارات العالمية حتى تثبت قدرة الشعب المصري على التجدد والانطلاق نحو التقدم والنهضة ويركز أحمد حسين على انهيار نهضة محمد علي فيراها في تربص دول أوروبا بالعالم الاسلامي كله والشرقي خاصة ، واختصاص مصر بالدرجة الأولى بأطماعه ومناوراته.

ويمكن القول تعليقاً على الرأي السابق أن تبرير أحمد حسين لاستبداد محمد علي السياسي يجانب الصواب ، إذ لا يمكن المقارنة بين ما كان يحدث في أوروبا في العصور الوسطي وما يحدث في مصر في العصر الحديث ، وحتى لو أجزنا هذه المقارنة ، فإنها لا تعطينا مبرراً لاستبداد محمد علي وتهميشه للأمة المصرية ، والمقارنة دائماً تكون متطلعة لحالة أفضل وتطبق النظرة الاستشرافية للمستقبل ، حتى تستطيع أن تبني الحاضر ، تلك هي في نظرى مهمة فلاسفة التاريخ.

أما عبد المتعال الصعيدي فإنه يعدد إصلاحات محمد علي على مختلف المستويات العلمية والعسكرية والزراعية والصناعية وما إليها من مجالات تحسب لمحمد علي ، لكنه يأخذ عليه أن إصلاحه كان إصلاحاً مدنياً صرفاً ليس فيه شيء من الاصلاح الديني أو الاصلاح السياسي ، أما الأول فإن الصعيدي يلتمس له العذر فيه نظراً لأميته وإهمال علماء الأزهر لدورهم ، أما الثاني فإن إهماله يقع على محمد علي ، فقد كان من

الواجب عليه أن يجعل حكمه شورياً على مثال الحكم في أوروبا التي قلدها في الاصلاح المدني ، وحتى يشعر الشعب بقيمة ذلك الاصلاح فيخلص له في حياة صاحبة وبعد مماته ويؤمن بفوائد الاصلاح الذي قام به فتسعي إليه قبل أن يسوقها إليه سوقاً ، ولكن السبب عند الصعيدي يعود إلى أميته التي أبت أن يشاركه غيره في الحكم لأنها كانت تترك في نفسه شعوراً بالعجز والنقص ويأخذ الصعيدي كذلك على محمد علي عجزه عن توحيد الشعب الذي اختاره لحكمه ، فلم يتمكن من التغلب على النزعة العنصرية التي جعلته يتعالى على أبناء الشعب المصري وينظر إليهم على أنهم دون المستوى ، وتبعه في ذلك بقية الطوائف الغربية التي استأثرت بالوظائف القيادية ، وبقى الشعب المصري من جراء ذلك يزرع ويساق إلى الجندية دون أن يكون له رأي في حكم بلاده .

ومن الباحثين المعاصرين الذين حللوا نهضة محمد علي ، مسعود ضاهر الذي اعتبر أن من إيجابيات مشروع محمد على نصحه السلطان العثماني توحيد السلطنة على قاعدة الجهاد التي يدعو إليها الدين الاسلامي ، وتجاوز مرحلة الضعف والانحطاط على قاعدة إصلاحات جذرية وفورية وشاملة ، على النمط الأوروبي ، مع رفض سياسة القروض طويلة الأمد ، على عكس ما فعل خلفاؤه الذين تركزت سياستهم الاقتصادية على الاستدانة ، مما أوقع مصر تحت الاحتلال فيما بعد .

ومن الأخطاء التي يأخذها مسعود ضاهر على محمد علي ، أنه توهم أن الصراع الفرنسي ، البريطاني صراع استراتيجي لا يوحي بالتفاهم بينهما على اقتسام المغانم على حساب البلدان الأخرى ، في حين أن التناقض الظاهري بين الدول الأستعمارية كان تناقضاً مصلحياً لا يمكن الركون إليه ، وقد وقع محمد على في سياسة تضخيم ذلك التناقض الذي وقع فيه معظم الاصلاحيين ، وقد تبين له خطأ ذلك التصور بعد تخلي الفرنسيين عنه في مؤتمر لندن عام ١٨٤٠م .

فقد أدركت الدول الغربية منذ البداية خطورة التوحيد بين الولايات العربية ، خاصة بعد اكتشاف الثروات الطبيعية الهائلة فيها ، لذلك حاربت وجود جيش عربي قوى في هذه المنطقة ، ورغم القضاء على تجربة محمد على فإن الدول الغربية شديدة الحساسية ضد وجود هذا الجيش وضد كل أشكال التوحيد في المنطقة ، لذلك دعمت المشروع الصهيوني في فلسطين في أعقاب هزيمة محمد علي في بلاد الشام وما زالت تدعمه حتى الآن كذلك يؤخذ عليه في تعامله مع الغرب استفادته المحدودة من تنوع نماذج التحديث الأوروبية ، فقد أبقى الطابع الشمولي لحركة التحديث في عهده فرنسياً وحيد الجانب ، فأدخل مصر في دائرة الصراع الدولي المباشر مع الفرنسيين والانجليز والروس ، لذلك بقيت مصر أسيرة النموذج الفرنسي ، عبر خبراء فرنسيين وبعثات علمية إلى فرنسا

، وارتهان شبه تام بتقلبات السياسة الفرنسية في شرق البحر المتوسط ، ومع دخول مصر في دائرة الصراع الأنجليزي – الفرنسي سعت إنجلترا لضرب مشروع محمد على بوصفه ركيزة احتياطية للمشروع الأمبريالي الفرنسي للسيطرة على العالم العربي

ويؤكد مسعود ضاهر أن إصلاحات محمد علي قد طالت مختلف الجوانب العسكرية والأدارية والاقتصادية ، وهي لها أهميتها ، ولكنه أغفل جانباً مهماً وهو الأصلاحات السياسية تحت شعار أن السلطنة العثمانية تواجه أخطاراً خارجية لا تسمح لها بإطلاق الحريات لرعاياها خشية بروز دعوات انفصالية أو استقلالية عنها ، كذلك انتهى عهد محمد علي في مصر دون ولادة دستور عصري مكتوب ، وتم إحلال المجالس التي تضم الأعيان ، الذين يتم اختيارهم بطريقة أشبه ما تكون بالتعيين لا صلاحيات لها محل المجالس النيابية المنتخبة من الشعب ، وقد رفض محمد علي كل أشكال الديمقراطية ورفض تثقيف الجيش بمقولات الوطنية والسيادة والأستقلال وغيرها من المقولات المهمة للنهضة

ومن الباحثين المعاصرين الذين حللوا نهضة محمد علي ، عبد العزيز الدوري ، الذي يسجل مآثر محمد علي ، فيري أنه أول نهضوي عربي أنشأ جيشاً حديثاً ، ووضع له قاعدة علمية واقتصادية ، وكانت له إسهامات في الأصلاح الزراعي والصناعي والصحفي أيضاً ، ولكنه يرى

أن مشروع محمد علي كان مشروعاً نخبوياً لم يراع الهوية التراثية للشعب المصري في التحديث

ويركز كل من محمد عابد الجابري ، وعبد العزيز الدوري ، على العوامل الخارجية فيما أصاب النهضة العربية ، متمثلة في بواكير هذه النهضة ، نهضة محمد علي ، أو حتى المشروعات اللاحقة في الوطن العربي ، فيرون أن ما أصاب التحديث والتقدم من انتكاسات في الوطن العربي بوجه عام ، يرجع في الأساس لا إلى المقاومة الداخلية من القوي المحافظة في المجتمع العربي ، بل إلى الدور التخريبي الذى قام به الوجه الأخر للحداثة الأوروبية ، والذي قوامه الداخلي (القوة) أو (المنافسة) ، وتطبيقه الخارجي (التوسع الأستعماري) (والتنافس الغربي) ، الذي أجهض المشروع الحضاري العربي

ويتبنى التوجه نفسه عبد الأله بلقزيز ، حيث يؤكد أنه لا يتبنى وجهة النظر التي تفسر التاريخ تفسيراً تآمرياً ، لكن الواقع أن الأستعمار ساهم في إلحاق ضربات موجعة ، بل قاتلة للمشروع النهضوي العربي ويدلل على ذلك بالتحالف البريطاني الفرنسي مع عدوتها الدولة العثمانية لإجهاد مشروع محمد على بالعنف المسلح سواء لنهضة مصر أو لتحقيق وحدة عربية تضم مصر والشام ، وإن كان هذا لا يعني عنده أن

مشروع محمد على كان خالياً من الأخطاء ، ويعدد الأخطاء نفسها التي ذكرها سابقوه في هذا الأتجاه

ذلك هو مجمل آراء هذا الأتجاه في تحليل نهضة محمد علي ، ويمكن أن نلاحظ عليه الأتي :

من أنصار هذا الأتجاه من حاول تبرير استبداد محمد علي السياسي وإهماله جانب الأصلاح السياسي بالظروف التاريخية والواقع السياسي مثل أحمد حسين ، ومنهم من رفض ذلك وركز على إهمال محمد علي المتعمد لجانب الأصلاح السياسي ، مثل عبد المتعال الصعيدي ومسعود ضاهر

مازال التركيز عند أنصار هذا الأتجاه أيضاً على إهمال محمد على تنمية الوعي القومي المصري بالنهضة وأهميته لها وذلك واضح عند سلامة موسى

لا ينكر أنصار هذا الأتجاه ، أخطاء محمد على وفشل مشروعه للنهضة ، ويركزون على منطقة أخرى في تعامله مع الغرب لم يركز عليها أنصار الأتجاهين السابقين وهى عدم إدراك محمد علي لنوايا الدولة الغربية الأستعمارية تجاه مصر والدولة العثمانية ، أو كما يسمونه الوجه الأخر للحداثة الأوربية ، ولعل هذه كان واضحاً أكثر عند الباحثين

المعاصرين أمثال : محمد عابد الجابري وعبد العزيز الدوري وعبد الأله بلقزيز وغيرهم ، نظراً لأن هذا الوجه الأخر للحداثة الأوروبية ازداد قبحاً وبشاعة بعد أن تلون بألوان التنمية والديمقراطية والحرية ، خاصة عندما تضافر الوجه الأوروبي مع الوجه الأمريكي ، فأخرجوا لنا مخلوقاً بشعاً كنا نتمنى لو لم يكن كذلك تلك كانت أهم اتجاهات فلسفة التاريخ التي نظرت لنهضة محمد علي كل من منظورها الخاص الذي حللت من خلاله أبعاد تلك النهضة

الملكية وحيازة الأراضي :

ويستمر تحيز ونفاق القناصل، حين يصفون التغييرات ، فيما يتعلق بإجراءات محمد علي لتغيير أوضاع الملكية والحيازة الزراعية ١٨٠٨ ـ ١٨١٤، فقد ذكر القنصل الأنكليزي أن الوالي صادر جميع أراضي مصر٢٠ أما بارنيت، فقد ردد نفس المزاعم، والتي كما أشار إليها أن المراقبين الأوربيين مارسوا هذه المزاعم أكثر من السكان المحليين٢١، والسبب في ذلك بسيط، لأن محمد علي ألغى نظام الألتزام، وصادر أملاكهم، وسجلها باسم الدولة، في الوقت الذي عجزت الدولة العثمانية نفسها عن فعل ذلك فقد كانت للسلطان سليم محاولات لإلغاء نظام الألتزام، لكن الباشا نجح حيث فشل السلطان ولقد كانت مصر على الدوام مجالاً ملائماً لحرية الزراعة، فقد كان للفلاحين حق العمل في الأراضي

وزراعتها كما شاءوا واليوم نحن ننتقد هذه التغيرات حول الملكية وحيازة الأراضي، بعد أن تحولت إلى ملكيات واقطاعيات كبيرة، ولكن هذا النقد لا بد وأنه يستند إلى أسس ومعايير مختلفة.

التجنيد الالزامي:

فيما كتب عن محمد علي باشا مزاعم روجت لها جهات مشهورة، مثل: هامونت، وبورينج، فضلاً عن تقارير القناصل الأجانب في مصر، في أن طريقة التجنيد في مصر كانت مروعة ومشينة للإنسان، وكان الوالي يمعن الايذاء بالجند وعلق القنصل الانجليزي باركر على طريقة التجنيد إن السكان الحضريين تم ربطهم بالسلاسل، وجرهم كالطريقة التي يربط بها الفلاحون ثيرانهم نحو مراكز التجنيد.

محمد على يدمر حياة المصريين

قال الخديوي اسماعيل في حفل افتتاح القناة أن جده محمد علي جاء فوجد مصر خراباً فعمرها ووجد الجهلاء فعلمهم وأقام جيشاً قوياً وجعل لمصر حضارة بعد أن كانت خرابا.

استوحش تلك الكلمات التي ينفر منها العقل والتي زيف بها الخديوي اسماعيل التاريخ كما زيفه الملك فؤاد فكانوا حريصين علي أن يلتقوا بالمستشرقين الأوروبيين ويبينوا لهم فضل الأسرة العلوية علي مصر

وأن محمد علي أسس مصر الحديثة مستدلين علي ذلك بانتصاراته علي العثمانيين ومن خلال كتاب كل رجال الباشا لخالد فهمي يسرد لنا ما تركه محمد علي من أثر علي المصريين الذين دمرت حياتهم الاجتماعية من أجل مجد الباشا متحججاً بوثائق عثمانية وأخري من دار الوثائق بالقاهرة.

في بداية تأسيس جيش محمد علي استعان بالعبيد من النوبة والسودان وكان عبئاً بكل ما تعنيه الكلمة فكانوا يمشون اميالا ويهمل شربهم وأكلهم وكانت تنتشر بينهم الأمراض حتي توقف محمد علي عن تجنيدهم اثر تقرير جائه بعدد الموتي من الأفارقة فبعد سنتين كان يقاد ٦٠٠٠من العبيد يموت منهم بفعل الاهمال وحر الشمس والمشي والمرض ٤٠٠٠عبد فهرع محمد علي واضطر لتجنيد المصريين وهو كاره لهذا مع حرصه ألا يعين أي منهم في وظيفة عليا ووثق ذلك في خطاب أرسله لابراهيم باشا ابنه أثناء حملته علي الشام حيث فضل الضباط الأتراك الأسري علي جنوده المصريين فكان يعين الجندي الأسيرالغير ناطق بالعربية في جيشه فيصبح متحكماً في الجنود الذين أسروه ، في البداية جند محمد علي ٢٥٠٠ جندي مصري وأرسلهم لقتال الوهابيين ففاقوهم وتغلبوا عليهم فقتلوا أضعاف عددهم فكان عدد الوهابيين١٠٠٠٠جندي فرغم عدم اكتمال التدريب هزمهم جند مصر ، في ٢٢مارس١٨٢٤قتل

أربعة آلاف شخص في منطقة القلعه بسبب انفجار في مخازن البارود فتوجهت قوة مصرية استطاعت تدارك الأمر وعزل المنطقة وتأمينها وقيل ايامها ان الانفجار من صنع الألبان قوات محمد علي القديمة ، وعندما اندلع تمرد الصعيد بالهجوم علي المراكز المحلية واحتلالها من قبل ٣٠٠٠٠فلاح حيث انتفضوا ضد سياسات التجنيد والاحتكار أرسل محمد علي قوة مصرية للتصدي للتمرد وتصدت لهم وقتلتهم برغم أن القوة كانت من نفس المنطقة التي انتفضت وكان الموقف في غاية الصعوبة حتي أنه كان هناك جندي رأي أباه من المتمردين فذهب له ونصحه فلم يستجب فقتله وكافأه محمد علي بعد ذلك وزاد إعجابه بتجنيد المصريين بعدها فجند ١٣٠ألف جندي مصري ويذكر أيامها أن ٤٥ ضابط مصري امتنعوا عن اطلاق النار علي أقاربهم وجيرانهم فاعدموا رمياً بالرصاص وكان عدد الضحايا٤آلاف فلاح .

محمد علي يدمر حياة المصريين:

كان أول ما جنده محمد علي من المصريين وضع له مدة تجنيد ٣سنوات وهناك خطابات متضاربة بين محمد علي وابراهيم بعد أن رفع سنوات التجنيد ل١٥عاماً وطالبه ابراهيم بتخفيضها ثانية لكنه رأي أن هذا سينقص من قوة الجيش.

وكان أول ما بدأ التجنيد في مصر بدأ بتكوين لجان من ضباط أتراك ليقوموا بتجنيد المصريين وأوصاهم بحسن المعاملة لكن الواقع أنهم لم يحدد لهم سن التجنيد أو شروطه فكانوا يقتادون أكبر عدد يقدروا عليه حتي وان كان من كبار السن والعجزة وكان محمد علي يوجه الخطباء لتحفيز الفلاحين علي التطوع لكن لم يتطوع أحد فعلي العكس كانوا يبترون أصابعهم حتي يصبحوا غير لائقين في الكشف الطبي حتي أصدر محمد علي قانون بمعاقبة المتهرب بالعاهة بارساله للعمل في ليمان اسكندرية فاحتال آخرون بوضع السم في أعينهم ليصابوا بعمي مؤقت ومنهم من كان يهرب من بلدة إلي أخري بابنائه وعياله حتي إذا دخلت حملة التجنيد قرية وجدتها خاوية فأصدر الباشا قانون باصدار أختام ودفاتر توضع لكل قرية وختم يبقي مع الفلاح ولا يغادر إلا باذن من شيخ القرية ولم تتوقف محاولات الفلاحين عند هذا بل استمرت حتي بعد التجنيد ففي أثناء حرب الشام التي قادها إبراهيم باشا كانت معظم عائلات الجنود تتنقل بانتقالهم كما عاني الجيش من هروب حراسه الذين يحرسون الجنود حتي لا يهربوا حتي عرض تقرير علي محمد علي بعد خمس سنوات من تكوين الجيش ذا١٣٠ألف حيث بلغت حالات الهروب٦٠٠٠٠.

كان الفلاحون يعتبرون التجنيد سخرة فهو يبعدهم عن عائلاتهم ويدمر حياتهم ففي وثيقة عثمانية استند اليها خالد فهمي أن نساء مصريات لجات للعمل كمومسات في الشام بسبب عدم وجود عائل لها ولحماية أبنائها من الجوع في ظل انه في خلال اشتداد ازمات التجنيد عزف كثير من المصريين عن الزواج فما يشجعهم علي الزواج لينجبوا أطفالاً مصريين يعانون ما يعانونه من سخرة التجنيد وعفنه وسوء معاملته كما أن الحروب كانت لمجد الباشا وأجل مجد الاسرة العلوية فالراية التي كان يرفعها الجيش المصري عندما واجه العثمانيين هو علم مكتوب عليه بخط مزخرش محمد علي بالطبع لم ينتبه أيامها الفلاحون لتلك الراية فكانوا أميين لذلك لم يصل من معاناتهم شيء تركوه مكتوباً.

وليس معني ذلك أن مصر لم تستفد مما فعله محمد علي فعلي الرغم من أنه كان يبني جيشاً لمجده وأرسل البعثات لدراسه الطب لفحص جيشه وسخر له كل موارد الدولة وهو المحتكر الوحيد إلا أن مصر قد تساقط لها الفتات مما حدث وما نالها إلا أن حياة المصريين تدمرت ففي

ذكرت رواية جندي مصري عاد للتو أخيراً بعد انتهاء مدة خدمته وجد قريته لا محروقة ولا منهوبة انما فارغه مفرغه من أهلها .

تقديم تسهيلات للأجانب

وهناك باباً آخر، وهو التسهيلات السياسية والاقتصادية والقانونية التي قدمها محمد علي لترسيخ الوجود الأجنبي في الشام مما جعل فكرة الدولة اليهودية تنتقل من أحلام المتدينين والدراويش والأدباء اليهود لتصير مشروعًا سياسيًّا تتناوله أروقة الساسة والمفكرين والصحافة.

كان من أول ما فعله إبراهيم في الشام أن أذن للتجار الأجانب أن يبتاعوا ويبيعوا داخل البلاد، وقد كان محظوراً عليهم الاتجار مع غير بعض المواني في الساحل[١]، وتظهر الوثائق أن محمد علي سمح للإنجليز ولغيرهم من الأوروبيين بتجارة التبغ بغير تدخل ولا إشراف من الدولة، برغم أن مستندهم في هذا فرمان مبهم غامض[٢] كذلك فقد فتح إبراهيم باشا أبواب دمشق للأوروبيين، وكان دخولها محرماً عليهم[٣] ويروي داود بركات، في كتابه الذي ألفه لمدح إبراهيم باشا، أن الحكومة المصرية سَهَّلت قدوم الإفرنج من مرسلين وتجار وسواهم، فأنشأوا المدارس[٤]لكن الذي كتمه ولم يظهره كشفته دراسات يهودية أخرى

١-داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٣٣. ٢- المحفوظات الملكية المصرية -أسد رستم، ، ١٣٥/٣، (رقم الوثيقة ٤٦٤٢ بتاريخ ٢٢ ربيع الأول ١٢٥٢هـ = ٧ يونيو ١٨٣٦م (٣)داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٣٢. ٤- داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٨٩.

تحدثت عن المدارس التي أسسها اليهود الأوروبيون أمثال موسى مونتفيوري وأدولف كريمييه وسلومون مونك الذين قصدوا إلى إنشاء مدارس حديثة يتعلم فيها الشباب اليهودي بالمعايير الحديثة، ليتحقق لهم نوع من الاستقلال يجعلهم ليسوا بحاجة لليهود الغربيين للدفاع عنهم وبعد أن كانت الوظائف العليا الحساسة محظورة على غير المسلمين. قلدت الحكومة المصرية من المسيحيين الوطنيين والإفرنج الوظائف في الجيش والدولة، ومنحتهم الرتب والألقاب[1] حتى في بيت المقدس صار الأجانب مشاركين في الحكم والإدارة، فقد رُتِّب مجلس شورى القدس الذي يتولى التنظيم الإداري فيها على نمط لا سابق له، إذ صار مكونًا من أربعة عشر عضوًا فيه ممثل عن اليهود هو الخواجه رونه، وممثل عن الأجانب يوسف وممثل عن الأرمن يعقوب حاسر، وكان القائم على خزينة بيت المقدس الخواجه أنطون أيوب[2].

وصاروا يطالبون بالترخيص بمشروعات اقتصادية، وقد سُمِح للحاخام الإسرائيلي بإنشاء طاحون كبير، كما سُمِح لليهود[3] بتعليم الجنود صنع

---

١ ـ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم، ص١٨٩. ٢ ـ الأصول العربية لتاريخ سورية في عهد محمد علي باشا ـ أسد رستم ٢٢٤/٥، ٢٢٦. ٣ ـ المحفوظات الملكية المصرية ـأسد رستم، ٣٢٦/٢، (وثيقة رقم ٣٠١٢، ٣٠١٥ بتاريخ محرم ١٢٤٩هـ).

العباءات وطلبوا كذلك الترخيص «لهم بمشترى الأملاك وأراضي الزراعة وتعاطي الحرث والزرع وتعاطي البيع والشراء وبيع الأغنام والأبقار، وتعاطي مَصَابن ومعاصر بناء يدفعوا المرتب للميري مثل الرعايا ، هذا مضمون استعلامهم وأرفق بهذا الطلب رأي مجلس شورى القدس الذي يرفض الموافقة على هذا المطالبات التي ما سبق لها مثيل والتي هي تصرف في أراضي أميرية ووقفية، فالتماسهم بذلك لا يوافق حكم الشريعة ما عدا تعاطي البيع والشرا بالتجارة التي يجلبوها من بلادهم من أنواع التجارة[١]

إنشاء مشاريع لترسيخ النفوذ الأجنبي

لا شك أن المآل الطبيعي لانفتاح دولة محمد علي على الأجانب ثم حربها الدائمة مع العثمانيين كان يميل بالاقتصاد والمشاريع في منطقة الشام إلى كفة الأجانب، وفي الوقت الذي سمح إبراهيم باشا بكل ما سبق من تسهيلات للأجانب، فإنه اتخذ قرارًا بمنع السفن التركية من النزول فى موانى الشام، ومنع القوافل الآتية من الأناضول من دخول الشام[٢]

١- الأصول العربية لتاريخ سورية أسد رستم ، ٦٥/٣، ٦٦. (وثيقة بتاريخ ٢٤ محرم ١٢٥٣هـ) .

٢- ، البهجة التوفيقية في تاريخ مؤسس العائلة الخديوية- محمد فريد -تحقيق: د. أحمد زكريا الشلق، ص١٦٥.

خوفاً من أنها تحمل البارود مددًا للثائرين عليه، مما سبب أزمة تجارية شديدة مع أن القناصل سيمدون الثوار على إبراهيم باشا في مرحلة لاحقة حين أريد طرده من الشام، ولن يستطيع أن يفعل معهم مثلما فعل مع سفن العثمانيين لكن المحاولة الأخطر كانت مع رجل المال اليهودي الأشهر موسى مونتفيوري، الذي استقبله محمد علي بالبشاشة والترحاب في القاهرة، وهذا الرجل هو صاحب أهم وأقوى محاولة لتوطين اليهود في فلسطين قبل هرتزل، وكان له طموح واسع ومعلن[1] نحو استيطان اليهود لفلسطين من خلال شراء أراضي واسعة لزراعتها، وكانت أمانيه المنشورة تدل على ضخامة الآمال التي فجرتها سياسة محمد علي لدى اليهود، فهو يريد منه أن يؤجر لهم مائة أو مائتي قرية لمدة خمسين سنة في مقابل عشرة أو عشرين في المائة تدفع في الإسكندرية من قيمة الإيجار تدريجياً، ويجب أن تكون هذه القرى حرة مجردة من كل مانع ومحذور، أي طليقة من قيود الضرائب والإتاوة كل مدة الإيجار وللمزارعين الحق في بيع الحاصلات في أي بلد من بلدان العالم[2] ومع هذا فإن الرواية اليهودية تقول أن استعداد محمد علي كان أعلى من

١- أفصح عنه بوضوح في جريدة تصدر في صفد ٢٤ مايو ١٨٣٩ (أي في ظل الحكم المصري) كما نقل ذلك إيلي ليفي أبو عسل. ٢ إيلي ليفي أبو عسل، يقظة العالم اليهودي، ص١٤٤ وما بعدها.

طموحات مونتفيوري نفسه لكن المشكلة كانت في أن السلطان هو وحده المخول بالتصرف في الأراضي على هذا النحو، أما محمد علي فقد تعهد لرجل المال اليهودي بالترخيص لليهود في شراء أية مساحة يستطيعون أن يجدوها في ربوع سورية ويرغب السلطان في أن يمنحها لهم بمجرد طلبهم وقال: يمكنكم والحالة هذه أن تنتخبوا حكاما يقع اختياركم عليهم للإشراف على مقاطعات فلسطين بأسرها وإنني لا أدخر وسعًا في سبيل معاونتكم وشد أزركم في إنجاز هذا المشروع الحميد المفيد[1] كذلك أراد مونتفيوي تأسيس عدد من البنوك في سلطان محمد علي باعتباره جزءًا من خطته لإعادة توطين اليهود في فلسطين وكان بالمرستون –وزير الخارجية البريطاني- صاحب النفوذ الواسع في حكم محمد علي حريصا على تحقيق أوضاع مريحة لليهود في الشام، وكان يرتب لمونتفيوري اللقاءات بالشخصيات التي يمكنها أن تحقق له أحلامه كان غرض مونتفيوري توفير وضع متميز لليهود وقدر كبير من الاستقلال الذاتي وتنمية المشاريع الزراعية والصناعية في فلسطين حتى يحقق اليهود الاعتماد على الذات وفي المقابل اقترح مونتفيوري تأسيس البنوك في المدن الرئيسية في المنطقة لتقدم التسهيلات الائتمانية للمنطقة بأكملها،

1- يقظة العالم اليهودي- إيلي ليفي أبو عسل، ، ص150، 151. .

وقد ساهم مونتفيوري في تأسيس بعض المستوطنات الزراعية في الجليل ويافا، وأسس أول حي يهودي خارج أسوار مدينة القدس، كما أسس بعض المشاريع الصناعية لكن مشاريع مونيفوري قُضِيَ عليها مع انتهاء الحكم المصري للشام وعودته تحت سلطة الخلافة العثمانية[١] ، إلا أن ما أسس له من مشاريع عمليًّا، وما تمتع به من نفوذ لدى الإنجليز، وما نشأ في الأذهان من خطة توطين اليهود، كل هذا جعله ينجح في إقناع السلطان العثماني بمنح الامتيازات التي كان يتمتع بها الأجانب لليهود في جميع أرجاء الإمبراطورية، وهو ما ساهم بدون شك في تحويلهم إلى عنصر أجنبي منبتّ الصلة بالمنطقة وذي قابلية خاصة للتحول إلى جماعة وظيفية استيطانية[٢].

ولم يكن مونتيفوي وحده الذي أيقظت أحلامَه سياسةُ محمد علي، بل نشر شارل فوريه كتابه الصناعة الزائفة عام (١٨٣٥ – ١٨٣٦)، وهو يقترح فيه التخلص من المشكلة اليهودية بطردهم إلى بلاد الشام وتوطينهم في فلسطين وسوريا ولبنان، وكان شارل فوريه من أهم المفكرين الاشتراكيين، وهو يرى أن التجارة هي مصدر شرور العالم[٣]

١- يقظة العالم اليهودي -إيلي ليفي أبو عسل ، ص١٧١. ٢-موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية -عبد الوهاب المسيري ١٧٧/٦. ٣-عبد الوهاب المسيري، موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية، ١٦٧/٣.

١٨٣٨ وأن اليهود تجسيد للتجارة وأنهم بلا ولاء ولا انتماء إلا للمال، ولا بد للمجتمع أن يتخلص منهم بالدمج أو بالطرد كذلك فقد نشر شافتسبري م في مجلة كوارترلي ريفيو (وهي من أكثر المجلات نفوذاً في ذلك العصر) عرضاً لكتب أحد الرحالة إلى فلسطين، ليتوصل منه إلى القول بأنها أرض مناسبة يُنقل إليها اليهود كأيدي عاملة ومهارات تمارس زراعة المحاصيل التي تحتاجها انجلترا، ويكون القنصل الإنجليزي في القدس هو المشرف على هذا الشأن وهو الوسيط بين اليهود وبين السلطان العثماني، وبعدها بعامين كتب هو نفسه وثيقة قدمها إلى بالمرستون (٢٥ سبتمبر ١٨٤٠م) يسهب فيها في فائدة هذا المشروع لبريطانيا [١].

إن تأمل تاريخ تلك الفترة يقضي بأن فكرة إنشاء وطن لليهود في فلسطين لم تكن لتتوقد لولا ما أتاحته سياسة محمد علي من آمال، فلقد فكرت أوروبا وعلى رأسها بريطانيا في ذلك الوقت أن تتخلص من مشاكلها الثلاثة الكبرى دفعة واحدة بهذا الحل توطين اليهود في فلسطين، فتتخلص بهذا من المشكلة اليهودية الداخلية، ومن الدولة العثمانية المسألة الشرقية بتقسيمها وزرع كيان معاد في قلبها، وقطع

١- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية - عبد الوهاب المسيري ١٦١/٦.

الطريق على التمدد الروسي في الشرق وحاول بالمرستون تسويق المشروع عند السلطان العثماني بدعوى أن إيجاد كيان يهودي يقطع الطريق على أطماع محمد علي أو أي من خلفائه في التمدد نحو الشام لهذا ففي تلك الفترة انتشرت مسألة الصهيونية بين السياسيين حتى من غير اليهود من بعد ما كانت منحصرة في الأدباء والعاطفيين والمبشرين الإنجيليين، وكتبت التايمز أن المسألة أصبحت قضية حقيقية مطروحة على المستوى السياسي، كما نشرت جريدة جلوب اللندنية (القريبة من وزارة الخارجية) مجموعة مقالات عام ١٨٣٩/١٨٤٠ تؤيد فيها مسألة تحييد سوريا وضمنها فلسطين وتوطين أعداد كبيرة من اليهود فيها وقد حازت المقالات موافقة اللورد بالمرستون وقد نوقش في مؤتمر القوى الخمس الذي عُقد في لندن عام ١٨٤٠ مسألة تحديد مستقبل مصر وفي ذلك العام، كتب بالمرستون خطابه إلى سفير إنجلترا في الأستانة يقترح فيه إنشاء دولة يهودية حماية للدولة العثمانية ضد محمد علي وقدَّم الكولونيل تشرشل عام ١٨٤١ مذكرة لموسى مونتفيوري يقترح تأسيس حركة سياسية لدعم استرجاع اليهود لفلسطين لإقامة دولة محايدة (أي في خدمة الدول الغربية)[1].

1- موسوعة اليهود واليهودية والصهيونية -عبد الوهاب المسيري 6/153 وما بعدها

دور محمد على فى انشاء اسرائيل:

وعن دور محمد علي باشا حاكم مصر ومؤسس الدولة العسكرية العلمانية في إنشاء إسرائيل، فينحصر في جذب وتسهيل تدفق اليهود والنصارى على بيت المقدس، ودعم وجودهم وإقامتهم، مع إهانة وازدراء والإزراء بأحوال المسلمين فما إن دخل إبراهيم باشا إلى بيت المقدس حتى أذاع أمرًا عاماً، وجهه إلى قاضي القضاة وشيخ مسجد عمر والمفتي والنائب وسائر السلطات، أزال به كل الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج المسيحيين واليهود إلى بيت المقدس، هذا نصه: في القدس معابد وأديرة وأماكن للحج تأتي إليها من أبعد البلدان كل الشعوب المسيحية واليهودية من مختلف الطوائف الدينية وكانت ترهق هؤلاء الحجاج إلى الآن ضرائب ضخمة في أداء نذورهم وفرائض دينهم ورغبة منا في استئصال هذا العسف، نأمر كل متسلمي إيالة صيدا وسنجقيْ القدس ونابلس بإلغاء هذه الضرائب على كل الطرق بلا استثناء يقيم في أديرة القدس وكنائسها رهبان ومتعبدون لقراءة الإنجيل وأداء الطقوس الدينية لمعتقداتهم والعدل يقتضي أن تعفى من كل الضرائب التي فرضتها عليها السلطات المحلية بشكل تعسفي ولهذا نأمر بأن تلغى إلى الأبد كل الضرائب التي تُجبى من أديرة ومعابد كل الشعوب المسيحية المقيمة في القدس من يونانيين وفرنجة وأرمن

وأقباط وغيرهم، وكذلك الضرائب القديمة والجديدة التي يدفعها الشعب اليهودي ومهما كانت الذريعة أو التسمية التي تؤخذ بها هذه الضرائب هدية عادية وطوعية أو إلى خزينة الباشاوات أو في مصلحة القضاة والمتسلمين والديوان وما شابه ذلك، فإنها جميعا ممنوعة منعاً باتاً وتلغى على حد سواء الكفارة التي تجبى من المسيحيين عند دخول كنيسة قبر السيد المسيح أو عند التوجه إلى نهر الشريعة فى الأردن وعليكم، ما إن نقرأ هذا البيورلدي (الأمر)، أن تسارعوا إلى تنفيذه كلمة كلمة، وتوقفوا فوراً جباية كل الضرائب المذكورة أعلاه وغيرها من الضرائب القائمة على العادة وكل مطلب من أديرة القدس ومعابدها العائدة إلى مختلف الشعوب[الأديان]المسيحية واليهودية، شأن الكفارات، كأمر مناف للقانون بعد إعلان هذا الأمر سيُعاقب بصرامة كل من يطلب أقل إتاوة من المعابد والأديرة المذكورة والحجاج[1].

وطبقا لرواية قسطنطين بازيلي السفير الروسي في يافا -وهو من أصل يوناني ومعجب بإبراهيم ومحمد علي- فقد أعلن إبراهيم باشا فيما بعد أن اليد التي تأخذ نقودًا من الحجاج في جبال اليهودية سوف تُقطع،

1- سورية وفلسطين تحت الحكم العثماني- قسطنطين بازيلي ، ترجمة: طارق معصراني، ص114؛ داود بركات، البطل الفاتح إبراهيم وفتحه الشام 1832م،ص35.

وبالفعل قطع يد اثنين أو ثلاثة، فلم يعد أحد يجرؤ على انتهاك قانونه ووجَّه محمد علي إلى إصلاح أديرة رهبان الروم في يافا وقيسارية، وبنى محجراً صحياً في يافا للحجاج الروم القادمين إلى بيت المقدس، ثم وجه إلى شريف باشا بوجوب تقديم المساعدات الإدارية اللازمة لمدير الحجر الصحي، وجعل ما يدفعه أولئك الحجاج تحت تصرف رهبان الروم والأرمن وهو إجراء يدل على حرصه أن يكون لهم استقلال مالي! وهو أمر غريب على سياسة رجل يؤسس دولة حديثة ونظامه الاقتصادي احتكاري! ولم يكن أمر إبراهيم باشا خاصاً ببيت المقدس وحده، بل كان برنامجاً لسياسة إبراهيم إزاء المسيحيين السوريين، وكانت كلماته تشكل عصراً جديداً بالنسبة إلى المسيحيين في الشرق انتعش وضع اليهود والنصارى الأجانب وغير الأجانب، وقد أعيد ترميم وبناء كُنُسٍ جديدة ، بلغ عددها تسعة معابد لليهود وصفتها وثيقة بأنها أُنْشِأت من جديد بالقدس وهذا أمر لم يُعهد له نظير في الإمبراطورية العثمانية أن يُمنح المسيحيون الحرية لتجديد معابدهم وأديرتهم في كل مكان، وحتى لبناء الجديد منها دون أن يشتروا شهادات من المحكمة الاسلامية (إعلاما) بضرورة أعمال التصليح والبناء ولا إذنا من السلطات المحلية·وقد وقع الخلاف أحياناً بين اليهود أنفسهم حول بناء معابد جديدة أم استثمار الأماكن في بناء مساكن لاستيعاب اليهود .

الجيش المصري أداة محمد علي وسيلته وهدفه:

لم يكن الجيش الذي أنشاه محمد علي إلا أداة لمجد الأسرة العلوية وترسيخ حكمها ولم يرسل بعثات الطب لأوروبا إلا للاشراف علي الجيش وفحصه فكان ضباطه من الاتراك العثمانيين او رعايا الدولة العثمانية غير العرب فكان محمد علي يرفض أن يرفع ضباط عرب لأن ذلك يمثل خطراً علي عرشه ، كما أن الضباط كانوا يتقاضون رواتب مهولة من خزينة مصر فكان يدفع لسليمان باشا الفرنساوي ٧٥٠٠٠قرش بينما كان يتقاضي أكبر سلطة في الجيش العثماني٦٤٠٠ وكان محمد علي يرغب الضباط العثمانيين فى العمل في الجيش المصري ويراسلهم فكانوا كالجنود المرتزقة يتركون الدولة العثمانية للذهاب لمحمد علي الذي سيدفع أكثر وعلي العكس فالجنود المصريين يحاربون حتي يصبحوا غير لائقين ففي وثيقة أوضحت أن أحد الجنود المصريين الذين شاركوا في حرب المورة أرسل خطاباً لمحمد علي يطلب منه أن يساعده في العلاج فقد سببت له الحرب إعاقة ولم يعد قادراً علي العمل فحولها محمد علي لوزيره وتغافل عنها ، وهناك حالة أخري لأحد المصريين الذين ماتوا في حرب الشام فبعد مماته حدث أن استعاد الجيش أمواله ورواتبه التي تقاضاها من الجيش وملابسه العسكرية باعتبارها أصبحت بعد موته ملك الجيش وعليهم اعادتها .

مات المصريون من أجل أن يكتب اسم محمد علي فى التاريخ ويورث أولاده عرش مصر.

النتائج السلبيه:

١- ساهمت اصلاحات محمد علي في فتح الطريق أمام التغلغل الأجنبي في مصر.

٢- زادت اصلاحات محمد علي من اعتماد مصر على الأسواق الأوروبيه مما جعلها تتاثر بالتغييرات الاقتصاديه الاوروبيه.

٣- جعل مصر عرضه للتدخل الأوروبي بحجة حماية تجارتها ومصالحها الاقتصاديه.

٤- قضى محمد علي على استقلال طبقة رجال الدين التي كان بمقدورها تحدي الاستعمار والدفاع عن الوطن.

وهناك رأي آخر لمحمد قطب يؤكد هذا الرأي ويؤيده قال فيه:

كان محمد علي شخصية سيئة السمعة معروفاً بالقسوة وغلظة الكبد ، ترسله الدوله العثمانية لتأديب القري التي تتأخر عن دفع ما يفرض عليها من المال ، فيعسكر هو وأفراد حملته التادبية حول القري ، فينهبون ويسلبون ويفزعون الأمنين ، حتي يري أهل القري أن الأفضل

لهم أن يدفعوا الأموال المطلوبه وان اثقلتهم وكان محباً للعظمة إلى حد الجنون وهناك من الأراء أيضاً ما يؤكد ويبرهن علي هذا الرأي السابق وتوضح أن محمد علي كان غشوماً في حروبة بعيداً عن تعاليم الاسلام فيها . ومن هذه الأراء راي المؤرخ المعاصر د/ علي محمد الصلابي حيث قال في كتابه الدوله العثمانيه وهو يعلق علي حروب محمد علي علي الحجاز ونجد : أن محمد علي لم يكن متقيداً بشرع الله في حروبه بل كان مخالفاً للشرع متعدياً علي حدود الله تعالي غير مبال بأحكام الاسلام ، فهذا جيشة يقتل ويدمر ويأخد الأموال ويهتك الأعراض من المسلمين الموحدين ومن أهم الأراء التي تبين لنا حقيقة هذا الثعلب المكار رأي سكرتيره الخاص ديوان أفندي الذي قال عندما أرسله محمد علي لتهدئة الموقف بينه وبين زعماء الشعب بعد أن سخطوا عليه بعد أن قام الأول بزيادة الضرائب حيث قال ديوان أفندي اثناء حديثه مهمه انه شاب مغرور جاهل ظالم غشوم ، ولاتقبل نفسه التحكم وربما حمله غروره علي حصول ضرر بكم ،وعدم انفاذ الغرض وهذه هي حقيقة هذا الطاغية عبر عنها المقربون منه ويتوجها آراء أخري لمؤرخون صادقون بحثوا عن الحقيقة ورفعوا عنه الستار .

سلبيات محمد على:-

١. القضاء على بعض قيادات الزعامة الشعبية مثل السيد عمر مكرم الذي تم نفيه إلى دمياط.

٢. حلم محمد علي لم يكن حلم أمة بل كان حلم شخص.

٣. إنهيار كل ما أسسه محمد علي بمجرد إجباره على قبول معاهدة لندن.

٤. نظام الاحتكار صحيح أنه خدم محمد علي في تحقيق حلمه إلا أنه كان عبئاً على المصريين.

٥. الأعمال الوحشية التي كان يقوم بها جيش مصر خاصة في بلاد اليونان.

الاحتكار: نظم محمد على الاقتصاد المصري في الزراعه والصناعه والتجاره على قاعده الاحتكار يعنى أن تقوم الحكومه ممثله في محمد على بتحديد نوع الغلات التى تزرع ونوع المنتجات التى تنتج وتحديد أثمان شرائها من المنتجين وأثمان بيعها فى السوق وبهذا الأسلوب يضمن محمد على الدخول في سوق التجاره الدوليه منافساً لغيره من الدول وبمعنى آخر فالأحتكار نوع من التوجيه الاقتصادى تحت اشراف

الدوله ولنتعرف الآن على نظام الأحتكار في المجالات الاقتصاديه المختلفه:-

- ولقد كان الاحتكار يطبق في الزراعه على النحو التالى:-

١.تزويد الفلاح بلوازم الزراعه من بذور ومواشي وأدوات يخصم ثمنها أوقيمتها من قيمه المحصول عند تسليمه.

٢.إلزام الفلاحين بزراعه ما تحتاجه الحكومه من الحاصلات الزراعيه.

الصناعه:- كانت أحوال الصناعه عندما تولى محمد على البلاد لا تلائم حاجه الجيش والأسطول ذلك أن نظام طوائف الحرف الصناعيه خضع في أواخر الحكم العثمانى للحكومه وأصبح شيخ الطائفه ملتزماً ولم تعد الطائفه مجالاً للارتقاء بالمهنه وعلى هذا كان احتكار الانتاج الحرفي أو خضوع الصناعات لنظام الاحتكار وسيله محمد على في تنظيم الصناعه لكى تحقق أهدافه بناء القوه الذاتيه للبلاد وطبقاً لسياسه الاحتكار كانت الحكومه تقوم بمهمه توجيه الانتاج وتوزيعه عن طريق مايلي:-

١.إمداد الصناع بالمواد الخام اللازمه للصناعه بالثمن الذي تحدده الحكومه.

٢.شراء المنتجات بالسعر الذي تحدده الحكومه.

٣.رفع أسعار بيع المواد الخام للصناع وخفض أسعار شراء منتجاتهم لتحقيق الربح المناسب.

وقد ساعدت هذه السياسه محمد على في تطوير الانتاج الصناعي بالاجراءات التاليه:-

١.إقامه مصانع حكوميه تتبع الدوله مباشره(قطاع عام) لتوفير الصناعات المطلوبه واستقدام خبراء من الخارج من ايطاليا وفرنسا وانجلترا لأعمال السباكه والصباغه ومختلف الصناعات.

٢.إجبار مشايخ الحارات على جمع الصبيه للعمل في مصانع الدوله إجبارياً فأصبحت بمثابة مدارس صناعيه.

٣.تخصيص بعثات للخارج منذ فتره مبكره١٨٠٩م لايطاليا وفرنسا والنمسا وانجلترا لدراسه فنون الصناعه المختلفه وترجمه الكتب الصناعيه.

احتكار الحاصلات الزراعية

ان الكلام عن نظام الملكية والضرائب يستتبع الكلام عن الحتكار للارتباط بينهما، ذلك أنه كان مألوفاً من عهد المماليك أن تجنى الضرائب نوعاً من حاصلات الأرض، ولم يكن الفلاحون الذين خولهم محمد علي

حق الانتفاع بالأراضي من اليسار بحيث يستطيعون أداء الضريبة نقداً في موعدها، كما أن الحكومة من جهة أخرى كانت تعطي الفلاحين أدوات الزراعة والمواشي والبذور التي يحتاجون إليها قرضاً، فكانت قيمتها ديناً عليهم يجب أن يؤدوه مع الضرائب، وهم كما قدمنا عاجزون عن أدائها نقداً لما كانوا عليه من الفقر والفاقة، لذلك أذن محمد علي باشا للفلاحين أن يؤدوا الضريبة صنفاً من حاصلات أراضيهم، وأنشأ في المديريات شوناً (جمع شونة) لتحفظ فيها الحاصلات التي تجنى من الفلاحين، ومن هنا صارت الحكومة تتولى بيعها للأهالي ولتجار الجملة من الأجانب الذين يصدرونها للخارج، وتتولى هي أيضاً تصديرها لحسابها وبيعها في ثغور فرنسا وايطاليا والنمسا وانجلترا، فربحت من هذا العمل أرباحاً طائلة، فكانت هذه الأرباح مغرية لها لاحتكار حاصلات القطر المصري والاتجار فيها وذلك أن محمد علي قرر أن تحتكر الحكومة جمع الحاصلات الزراعية بحيث يحظر على الفلاحين أن يبيعوها إلى التجار، وفرض عليهم أن يبيعوها للحكومة بأثمان تقررها هي، فصارت الحكومة محتكرة لتجارة حاصلات القطر المصري بأكملها، وهكذا تسلسل نظام الاحتكار، فبعد أن تملكت الحكومة معظم الأراضي الزراعية واحتكرتها بالغاء نظام الالتزام واسترداد أملاك المتلزمين وإلغاء معظم الأوقاف، احتكرت كذلك الحاصلات الزراعية، أي ان الحكومة صارت المالكة للاراضي الزراعية ثم محتكرة للحاصلات جميعاً،

فلم يكن للفلاح ملكية لا على الأرض ولا على ما تنتجه ولم يفت معظم كتاب الأفرنج انتقاد هذا النظام فيما كتبوه عنه، فقد قال المسيو موريه: ان هذا الاحتكار هو الجانب السئ في تاريخ محمد علي، وقال المسيو مريو: لا حاجة بنا الى الاطالة في عيوب نظام الاحتكار كما وضعه محمد علي، لقد ربح الباشا منه أرباحاً طائلة، لكنه أفضى إلى فقر الفلاحين المدقع وكاد يهوي بهم إلى مجاعة لولا ما اعتادوه من القناعة وشظف العيش .

احتكار الصناعة :

سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة والتجارة إلى الصناعة فبعد أن صار محمد علي المالك الوحيد لأراضي مصر، ثم التاجر الوحيد لحاصلاتها، صار الصانع الوحيد لصنائعها، والظاهر أنه رأى الاحتكار مما يزيد ايراد الحكومة لأنه فتح باباً جديداً للربح، فعمد إلى احتكار الصناعة، لكن هذه الطريقة أضرت بالحالة الاقتصادية في مصر ضرراً بليغاً قال المسيو مانجان في هذا الصدد: كان في البلاد صناعات يتولاها الأفراد، ويربحون منها ما يبيعونه من مصنوعاتهم إلى أهل البلاد، وما يصدرونه منها للخارج، كنسيج أقمشة الكتان والقطن والحرير وصناعة الحصر والجلود واستقطار ماء الورد وصبغ النيلة وغير ذلك وكانت هذه الصناعات تشغل عدداً من السكان يربحون منها نحو ثلاثين ألف كيس كل سنة

(١٥٠٠٠٠ جنيه)لكن محمد علي احتكر هذه الصناعات وأضاف أرباحها إلى حسابه وبعد أن كان الصناع يستثمرون هذه الصناعات صاروا يعملون فيها لحساب الحكومة، ويقبضون رواتب معلومة، كعمال مأجورين، وقال ان من النتائج المترتبة على هذا النظام أن كثيراً من صناع النسيج فضلوا ترك صناعاتهم واشتغالهم بالزراعة وآثروها على الاشتغال عمالاً لحساب الحكومة والاستهداف لسوء معاملة موظفيها، وأن المصنوعات في نظام الأحتكار قد هبطت جودتها عما كانت عليه حين كانت الصناعة حرة ولا غرو فان الصانع الذي لا يعمل لحسابه لا يتقن العمل كما يتقنه لو كان ربحه عائداً إليه، وقال ان احتكار الصناعات قد أضر بالأهالي، لان الاحتكار من طبيعته أن يتلف مصادر الثروة، ويحرم الصانع نتيجة كده وتعبه وقد ذكر الجبرتي في حوادث سنة ١٢٣١ و١٢٣٢ هـ (١٨١٦ و١٨١٧) احتكار الحكومة صناعة الغزل والنسيج وما أحدثه من الضيق وارتفاع اسعار المنسوجات وكيف أنه شمل كل ما يصنع بالمكوك وما ينسج على نول أو نحوه من جميع الأصناف من ابريسم وحرير وكتان إلى الخيش والفل والحصير في سائر الاقليم المصري طولاً وعرضاً من الأسكندرية ودمياط إلى أقصى بلاد الصعيد وذكر أيضاً في حوادث ذي الحجة سنة ١٢٣٥ (سبتمبر سنة ١٨٢٠) احتكار الحكومة للصابون وتجارته والبلح بأنواعه والعسل

وصناعة الخيش والقصب والتلي الذي ينسج من أسلاك الذهب والفضة للتطريز والمقصبات والمناديل والمحارم وخلافها من الملابس .

التسامح مع غير المسلمين

من الوقائع التي تدل على تسامح محمد علي مع غير المسلمين، وبشكل خاص المسيحيين، المرسوم الذي أصدره ليهدئ من روع رهبان دير القديسة كاترين في سيناء بعدما تمركزت قوّات كبيرة العدد من الجيش المصري في شبه الجزيرة تلك، خلال عهد الحروب مع الوهّابيين، وقد جاء فيه: صدر المرسوم الشريف الواجب القبول والتشريف والاتباع عن ديوان مصر المحروسة إلى قدوة الملة المسيحية وعمدة الطائفة العيسوية الرهبان سكان الدير بجبل سيناء ختمت عواقبهم بالخير والرشاد تحيطون علماً أنه قد طرق مسامعنا حاصل عندكم خوف وغضب بخصوص قدوم العساكر المرسلة إلى الحجاز، والحال أننا لا نرضى إلا كامل راحتكم واستراحتكم في محل مواطنكم بالدير بجبل سيناء وتكونوا مطمئنين ومستريحين من هذا القبيل وعليكم أمان الله تعالى وأمان رسوله ثم أماننا السعيد ولم تخشوا من شيء جملة كافية ولا أحد يعترض لكم بوجه من الوجوه ويكون لكم الحماية والصيانة في ديركم محل وطنكم بجبل سيناء ولم تهتموا من شيء مطلقًا، فبناء على ذلك أصدرنا هذا المرسوم الشريف عند وصوله إليكم يكون العمل بمضمونه وبمقتضاه واعتمدوه غاية الأعتماد.